شيطـــالاك

وُلد في واقع تملؤه الغرابة، تربَّى على مشاهدة العنف بدلًا من أفلام الكارتون، ورضع المكر من أمٍّ لعنها كل ما حولها من أشياء قبل الأشخاص ألف مرة، وماذا سيختار مثلُ أبيه غيرَ مثلِ أمِّه؟! وفي بعض الأحيان، كان يرى أنهم لو كفلوه حيوانًا لكان عليه أحنَّ، فلطالما رأى كلبةً أو قطةً تُرضع صغارها، رآها كيف تحنو عليهم، وكيف تدافع عن حياتهم؛ على الرغم من أن ما يحكمهم هو قانون البقاء للأقوى، فإنهم ملكوا ما لم يجده حوله في كائنات يفترض أنها الأرقى، كان هذا قدره وهذه حياته. يحيط به الموت من كل جانب، الشر منبته، ويسمونه في مجتمعه حقًّا، والقسوة عنوان تربيته، ويلقبونها رجولة؛ وحتى الأجواء الصحراوية من حوله ساعدت في هذا بقسوتها هي أيضًا، فكم ضنت بالماء والكلأ، وكم قتلت من مرعى، فهو يحيا بين بشر بالاسم لا بالفعل.

كان أبوه يأخذه منذ نعومة أظفاره لوضع الفخاخ، ليوقعوا

بسيارات المارة على الطريق الممهد، وغالبًا ما كانت تحمل أطفالًا ونساءً ورجالًا، وعلى الرغم من تشابه الجنس في اللفظ، فإنّه عايش لم يكن يرى وجهًا للشبه بينهم وبين هؤلاء الذين تربّى بينهم، لا رجالًا ولا نساءً، في كلّ مرة كانوا ينهارون ببساطة، ويستطيعون قودهم من دون مقاومةٍ؛ خوفًا على أبنائهم، ويأخذون منهم كلّ ثمين تصل إليه أيديهم، فما يحمله الرجل من أموال من نصيب الأب كاملًا، وما تحمله النساء من ذهب أو زينة من نصيب الأم وحدها، والمقتنيات توزّع لاحقًا، أما السيارة فتفكك في قريته ثم تباع بوصفها قطع غيار في مناطق أخرى، وأما الأسرى - كما يطلق عليهم - فبعد أن يقيدوا وتُغمى أعينهم، يوضعون في غرفة لها باب خارجيّ في منزلهم؛ لطلب فدية من ذويهم لاحقًا، ليعاودوا إطلاق سراحهم.

فطرةُ عايش كانت تراوده بين الحين والحين، وتحرِّك داخله أشياء كان يرجعها إلى الشيطان، فيستعيذ من هلاوسه، ولكن في الفترة الأخيرة لم يعد يبتهج لطلعاته مع أبيه ولا بإلقاء الرعب في قلوب المارة وإرهابهم هذا، وحتى صلاته وراء أبيه أهملها، كان في سجوده حيرة، وما بين الصلاة والصلاة حيرة. تساؤلات كثيرة كفيضان عارم تجتاحه وسيل جارف لا يستطيع

مقاومته، ولكنّ قراره هذه المرة جاء حاسمًا؛ فما بداخله ليس هلاوس ولا هو من صنع الشيطان؛ فما يراه في هؤلاء البشر شيئًا مختلفًا، وما يلمسه غريبًا، وكأنهم عالمٌ آخر. كيف يدافع أب عن عائلته؛ وهو لا يملك سلاحًا؟ لمَ يضحِّي، والأجدر أن ينقذ نفسه؛ كما علمته حياته من دون أن يفكر فيمن حوله! ما معنى هذه الأحضان من هؤلاء الأمهات لأبنائهن وكل هذا الخوف؟ من أين لهم بهذه الملامح الرقيقة؟ والأكثر لفتًا النظر كيف أنهم يصلون! كيف لهم أن يكونوا بهذا القرب، وما تعلمه أنهم هم اللصوص وهم المفسدون في الأرض، وهم من ينعمون بالخيرات، ويتركون أمثال عايش وأهله يموتون جوعًا؟!

هذه الحوارات كلها كانت تدور في ذهن عايش وهو في طريقه للمحبس في بيت أبيه، هذه المرة، لم يفتح الباب عنوةً، ولم يُلثِّمْ وجهه كما علَّمَه أبوه، ولكنه طرق الباب، ثم فتحه، وكأنّه يستأذن، وإن لم يكن لمن وراء الباب حيلة، وبعد خطوات عدة، وقف عايش مشدوهًا يتأمل ملامح هؤلاء البشر الأشرار؛ كما يعلم وكأنه يرى كائنات فضائية، كانت ملامحُ الرجل خاليةً من الغِلظة، ورائحته ذكية لا يشم فيها رائحة اللحم أو العرق كما اعتاد، وملابسه ذات ألوان زاهية، ولا يغطّي رأسه بعمامة

أو غطرة! بادرهم عايش بسيل الأسئلة التي تدور في رأسه، بادئًا إياها:

لماذا تصلون وأنتم أشرار؟ ولماذا أنتم مفسدون؟ لماذا تشبعون بطونكم، وتتركوننا جوعى وعطشى؟

تقدم الرجل بحذر قدر ما سمحت له قيوده، وبادر عايش بصوت هادئ:

نحن نصلي؛ لأننا نحب الله خالق هذا الكون باختلاف لغاتنا أو ألواننا ونعبده؛ ليرضى ويوفقنا فى الأمور كلها، ومن لا يحتاج إلى الله أو من لا يحتاج إلى السجود؟! نحن نعمل طوال اليوم ونجتهد بحثًا عن قوت يومنا ونساعد المحتاج قدر استطاعتنا ونعلم أبناءنا. أين الفساد في هذا؟

طأطأ عايش رأسه؛ فلم تزده هذه الزيارة إلا حيرةً، وأدار ظهره لينصرف، ولكن استوقفه صوت المرأة:

أتعرف أن ما بداخلك هو الصحيح؟ اسمع صوت ضميرك يا بني.

تسمَّر في مكانه لوهلة، ثم أكمل خطواته نحو الباب، وبعد أن أغلقه، ظل صوتها يتردد في عقله، ولكنه خجل أن يسألها:

وما هو الضمير؟

تُرى، هل هو هذا الصوت الشيطانيّ الذي يتردد داخله؟ أم هو تلك الهلاوس في عقله؟

لم تغفُ له عين، ولم يرتَحْ له بال، وتنازعته دواخله بين ما يؤمن به وما تراه عيناه وما يدور في عقله، أيهم الحق وأيهم الباطل؟ صراع لا يستطيع حسمه، أيقظه من الصراع فزعًا صوتُ طلق ناريّ انطلق نحو المحبس ليجد الدخان يتصاعد من فوهة بندقية أبيه، وذلك الذكي الرائحة تحت قدميه صريع من أثر رصاصة اخترقت ما بين عينيه، والمرأة وولداها في حالة انهيار وعويل، انتفض جسد عايش للمشهد سائلًا أباه:

لماذا؟ هذا الرجل ليس شريرًا ولا مفسدًا.

لم يُفق عايش إلا بصفعةٍ قويةٍ على وجهه من أبيه، وأخذه جرًّا إلى البيت؛ وهو يوبخه ويلعنه بأقذر الكلمات، تيقّن عايش أنّ الشرّ يكمن فيه؛ وفيمن حوله، وقرّر في غفلةٍ من أبيه أن يتسلّل إلى المحبس، ويحرر مَن فيه، ويهرب إلى أرض جديدة تحتوي على هذا الضمير، و تحتوي على بشر يحملون معنى

الإنسانية، لا على الأقدام فقط تسير؛ وقد كان. إذ فرَّ من شيطانه وعباءة أبيه؛ ليحيا بجناحَي ملاكه الكامن فيه.

كلٌّ منا يحمل هذا الشيطان، ويحوي هذا الملاك، فانظروا ما أنتم فاعلون.

obeikandl.com